

ملامح حول قراءة الأدب الصوفي السوداني والمؤثرات المغاربية عليه

Features of reading Sudanese Sufi literature and the Maghreb influences on it

بثينة قسم السيد عمر*

(buthainahgasm15551@gmail.com) السودان / جامعة البحر الأحمر

تاريخ الاستلام : 2018/06/30 ؛ تاريخ القبول : 2018/11/15 ؛ تاريخ النشر : 2018/12/20

Abstract

المخلص

The research aimed to study Sufism and Sufi literature in Sudan through acquaintance to the Sufi heritage of Sudan and the role of the Maghreb influences on it, and presenting models of Sudanese Sufi literature with textanalysis which include Sufi heritage manuscript in Sudan.

The study gains its value from analyzing the mystical literary text that highlights the importance of that heritage, to identify secrets and

to clarify its rhetorical and aesthetic dimension, which expresses its historical and human dimension.

The study adopted the analytical descriptive approach describing and analyzing the heritage and texts of Sufi literature in Sudan.

The study was based on a number of core including: Introducing the concept of Sufism. The study discusses the historical background of Sufism entering Sudan and the Maghreb influences on the Sufi heritage of Sudan.

Keywords : Sufi literature, Sufi poetry, Sudan, Sufism

يهدف هذا البحث إلى دراسة التصوف والأدب الصوفي في السودان عبر قراءة للتراث الصوفي السوداني ودور المؤثرات المغاربية عليه، وتقديم نماذج للأدب الصوفي السوداني مع تحليل النصوص التي يحملها التراث الصوفي المخطوط بالسودان. تكمن أهمية البحث في حاجة النص الأدبي الصوفي إلى قراءة تحليلية تبرز أهمية ذلك التراث، ولمعرفة أسرارهِ وتوضيح بعده الخطابِي والجمالي الذي يعبر عن بعده التاريخي والإنساني. تتبع الدراسة منهج البحث الوصفي والتحليلي في وصف وتحليل التراث ونصوص الأدب الصوفي بالسودان. اعتمدت الدراسة على عدد من المحاور من بينها: التعريف بمفهوم التصوف. وتناول الدراسة خلفية تاريخية لدخول الصوفية إلى السودان والمؤثرات المغاربية على التراث الصوفي السوداني. كما تناول الأدب الصوفي السوداني، وتقدم الدراسة نماذج لبعض النصوص الأدبية وتحليلها عبر استقراء مخطوطات التراث الصوفي السوداني.

الكلمات المفتاحية: الأدب الصوفي، الشعر الصوفي، السودان، التصوف

* الباحث المرسل:

مقدمة

"يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين،
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون" صدق الله العظيم.

البحث في أمر الصوفية هو سير في الوادي المقدس يجب خلع النعلين فيه - النفس والهوى -
والتلبية، لأنه وادي الصفاء والنقاء. فإذا أردنا أن نقف على مفهوم التصوف فيجد الباحث تعدد
الأقوال وكثرتها في تعريق معنى التصوف ولكن جميع هذه الأقوال تنصب في منبع واحد وتخرج في
مشكاة واحدة، وتعدد الأقوال في هذا العلم يثبت حقيقته العالية والراقية لدى العلماء، وتبين كم هو
علم جليل وسامي رفيع، ولو لم يكن كذلك لما تفنن العلماء في تعريفه فهو أكثر العلوم في معانيه،
إذ كل الأقوال تستخرج اشتقاقاتها من أقوال حسنة وهذا ينطبق على المعنى اللغوي أو الاصطلاحي
أو العرفي، لأن جميع من تناول التصوف بالتعريف ذكروا له أوصافا جليلة وراقية، مما يدل على
علو شأن هذا العلم ورفعته، واختلافهم في وصفه جاء من اختلاف الرؤى له ، فكل من وصفه
وصف جهة معرفته وتذوقه له، وقد تختلف التعريفات ولكنها جميعا تؤكد وصفا لشيء هائل وكبير،
فلذلك رأت الباحثة أن تجمع أهم التعريفات لهذا العلم ومن خلالها يتجلى بوضوح معنى التصوف.

1-التصوف بمعنى الصفاء :

قال سهل بن عبد الله : " الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله عن
البشر، واستوى عنده الذهب والمدر " (1 -السيد عقيل ، مدخل إلى التصوف ص67). نعم هم أهل
الصفاء والنقاء، لا يخرج مهم الا الصافي النقي، من تذوقه صفا عقله وسمت روحه وسلم قلبه
فخير وصف له هو در العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي:"2"(ديوان النابلسي ص)

ونحن أهل الصفاء لا نقبل الكدرا *** أقبل علينا صفيا تسمع الخبرا
وكن بأوصافنا في القرب متصفاً *** تتل مرادك منا كيف منك جرى

2- التصوف بمعنى الزهد:

قال معروف الكرخي (ت200هـ) أن "التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق".
3(أمين يوسف ، تأويل الشعر وفلسفته ، ص 12."فهو يشير إلى أن التصوف معرفة لحقائق الأشياء

وجواهرها، وعدم الاقتناع بما تمده ظواهرها هذا من جانب ، ومن جانب آخر يشير إلى مقام الزهد الذي هو التخلي عما في أيدي الناس من أملاك رغبة في الله تعالى .

3- التصوف بمعنى المجاهدة:

قال عمرو بن عثمان المكي : " التصوف أن يكون العبد في وقت بما هو أولى بهفي الوقت " 4 (مدخل إلى التصوف ص71) وعرفه كذلك الأمير عبد القادر الجزائري بأنه " جهاد النفس في سبيل الله، أي لأجل معرفة الله ، وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا شيء آخر في سبيل معرفة الله"

فلم يصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بالمجاهدة ، مجاهدة نفوسهم وحملها على الاستعانة فهل ذلك أمر هين؟. كلا ولا كرامة دونه تقطع الأعناق.

الملك عندهم ليس ملك القصور والترف والدعة، ولكنه ملك النفوس ، فمن ملك نفسه فطمها عن شهواتها ، فهو كمن ملك الدنيا بخذافيرها بل صارت عنده مطية الآخرة ، كما جاء في الحديث الشريف: "الدنيا مطية الآخرة" . فالنفس ثقيلة بميراثها من الخوف والأضغان والأحقاد والطمع والجشع ومصائب السلوك التي لا تحصى ، والتي أثقلت خطاها وكاهلها نحو الخير والسلام، ألم يقل المعصوم سيد الأولين والآخرين عليه أفضل الصلوات التسليم عند رجوعه مع أصحابه من الغزو: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر!! فقالوا ما الجهاد الأكبر ؟ قال: جهاد النفس...".

ليصلوا إلى السلام مع أنفسهم ويتصالحو معها، ويحققوا معها السلام أخذوها بالمجاهدات العنيفة، صاموا نهارهم وقاموا ليلهم ونشروا المحبة والتصالح والخير بين الخلق ، الأحياء والأشياء، رأوا العالم كله فيهم وفي ذلك قال الإمام عبد الغني النابلسي: " وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر... كل الوجود الذي هو حولهم عرفوا أنه انعكاس لدواخلهم ، فترفقوا بالأحياء والأشياء فيه على أنها جزء منهم، لم يروا عدواً خارجهم .

4- التصوف بمعنى الأخلاق:

قال أبو محمد الجريدي: " التصوف الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنيء" وقال الكتاني: " التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الصفاء " (5) "مدخل إلى التصوف ص69) .

عجباً لهم لم يروا الشر في غيرهم بل في أنفسهم، وذلك تمثلاً بالحديث النبوي الشريف: " إن أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك"(6 مدونة الكترونية صيد الفوائد) حتى رأوا الخصال الطيبة

والخير في جميع الأحياء والأشياء، قال الصوفي الامام النابلسي في معنى أنه يرى جمال الخلق
وكماله في كل شيء، وفي كل إنسان لا يطالعه الشر بل الحسن فيقول: "7" (ديوان النابلسي مدونة
الالكترونية كنوز)

فكيف يصبح عنها الطرف محتجباً *** فحسنها في جميع الخلق يلقاني

إن غيبت ذاتها عني فلي بصر *** يرى محاسنها في كل إنسان

مافي محبتها ضد أضييق به *** هي المدام وكل الخلق ندماني

فبعد ان بينت الباحثة التعريفات السابقة تجلى بوضوح أنه علم جليل وكله نابع من مشكاة النبوة
وتعاليمها، فهو تارة يأتي بمعنا الزهد وتارة الأخلاق وتارة بمعنى الصفاء وتارة بمعنى المجاهدة وتارة
بمعنى التسليم وكل هذه تتجلى بمعنى واحد وتدور حول مراد واحد وهو تركية النفس وجعلها كما
يريد المولى عز وجل، وهذا هو التصوف الصحيح على هذا بجب أن يكون وينبغي أن يتوفر فيه
كل ما ذكر من الصفات حتى يكون التصوف موافقا للشريعة الغراء وفق الكتاب والسنة

تاريخ دخول التصوف السودان:

دخلت الصوفية إلى السودان عن طريق مصر والبحر الأحمر ومن شمال وغرب افريقيا، وقد
ظهر أثرها الواضح في الحياة الدينية والحياة العامة في المجتمع السوداني.
يقول يوسف فضل حسن أن هناك مؤثرات في الحركة الفكرية في السودان في عهد الفونج حدثت
نتيجة لدخول مجموعة من رواد الثقافة، وكان ضمن هؤلاء الرواد مجموعة من مشايخ الطرق
الصوفية التي كانت منتشرة في البلاد العربية والإسلامية المجاورة للسودان كالحجاز والعراق
والمغرب ومصر. وقد وافق ذلك فترة ركود فكري في السودان، كما صادف غلبة التصوف وهيمنته
على كثير من الممارسات الدينية، مما يبين غلبة التصوف على الحركة الفكرية في السودان
وسيطرته على النشاط الديني فيه⁸ (يوسف وآخرين، من معالم تاريخ الإسلام في السودان، ص48)
كان انتشار الصوفية في السودان بصورة اعمق واوسع من انتشارها في كثير من البلاد التي
وفدت منها، لدرجة أنها سيطرت على الحياة الفكرية، وقد ارتبط ذلك بظروف المجتمع السوداني في
ذلك الزمان. ولذلك كما يري بابكر فضل المولي⁹ (بابكر فضل المولى، ص 205) يمكن أن
نخلص إلى الآتي:

1/ كانت حالة المجتمع السوداني عند دخول هذه الطرق الصوفية تتسم بكثير من الجهل والأمية، وصعوبة الاتصال في الداخل والخارج. وكان المجتمع في شبه عزلة فكرية خاصة في الاطراف والأماكن البعيدة.

2/ التوافق والتزامن بين دخول الطرق الصوفية والعلوم الإسلامية الأخرى جنباً إلى جنب في عهد الفونج في السودان بخلاف ما هو موجود في البلاد الإسلامية الأخرى فالمعروف أن البلاد الإسلامية الأخرى تأصلت فيها دراسة العلوم الإسلامية والفلسفية قبل أن تعرف التصوف (عبد القادر محمود، الفكر الصوفي السوداني، ص49) فتدرجت فيها مصادر المعرفة فبدأت بالتمسك بظاهر الكتاب والسنة في صدر الاسلام ثم ظهرت النهضة الفكرية والمدارس العقلية، ثم بدأت الفلسفات ذات الطابع الصوفي. ولهذا فان المجتمع السوداني استهوته الطرق الصوفية ، وذلك لأسباب منها:

3/ أن الغالبية من السودانيين لا يهتمون ولا ينجذبون إلى الدراسات الفقهية والعلوم الدينية، لذلك فأكثرهم يفضلون أن يكونوا اتباعاً للطرق الصوفية.

4/ تمتع شيوخ الصوفية بمكانة عليا في المجتمع السوداني لدي الخاصة والعامة. وكان الناس يحترمونها ويجلونهم، وحتى الملوك كانوا عندما يدخلون على شيوخ الصوفية كانوا يبسطون ايديهم للدعاء فيقول الفاتحة ثم يقبل يد الشيخ ويجلس على فراش الأرض احتراماً للدين.

5/ كان الناس يتهافتون على مشايخ الصوفية ليجدون عندهم الملاذ والانقاذ الروحي والمادي في كثير من الأحيان، فقد كان للشيخ القدرة على تهدئة الخواطر وبث الثقة في النفوس وقضاء المصالح والوساطة لدي الحكام ودفع الضرر.

ويمكن أن نقف وقفة موجزة لعدد من الطرق الصوفية في السودان فمنها:

الطريقة القادرية:

أوسع الطرق انتشاراً في العالم الإسلاميو قد عرفت أيضاً بالطريقة الجبلانية، وذلك نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجبلاني (470- 561هـ/ 1077م) وقد ولد بجبلان أو كيلان بإقليم طبرستان بإيران وتوفي ودفن ببغداد. وكان الشيخ عبد القادر عالماً ضليعاً يفتي على مذهب الإمامين الشافعي وابن حنبل. وصحب أحد شيوخ التصوف هو الشيخ حماد الدباس وأخذ عنه الطريق. وقد انتشرت تعاليم الشيخ عبد القادر الجبلاني بواسطة تلاميذه في أنحاء واسعة من العالم الإسلامي. وكان من بين هؤلاء التلاميذ الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم السودان في نحو عام (985هـ/ 1577م) من بغداد عن طريق الحجاز إثر دعوة من التاجر السوداني داوود بن عبد الجليل، وأقام معه في وادي شعير نحو سبع سنوات. وقد أعطى الطريق خلال هذه الفترة لعدد من المريدين منهم: محمد الهميم بن عبد

الصادق، جد الصادق، وبان النقا الضرير جد اليعقوباب، والشيخ عجيب المانجلك شيخ العبدلاب، وتاج الدين ولد التويم، جد الشكرية، وحجازي بن معين، باني أربجي ومسجدها. ويذكر ابن ضيف الله أن الشيخ البهاري قد ذهب إلى السودان فأخذ عنه جماعة منهم الفقيه عبد الله الحمال جد الشيخ حمد الترابي¹⁰ (ود ضيق الله ع الطبقات، ص8) وقد انتشرت الطريقة القادرية أيضاً في الجزيرة علي يد الشيخ عبد الله بن دفع الله العركي الذي رفض في بادئ الامر أن يتصوف ولكنه عندما رأى المكانة التي يتمتع بها شيوخ الصوفية عند الملوك والعامه اخذ الطريق من خليفة الشيخ البهاري وأسس الطريقة القادرية بابي حراز. كذلك من اشهر شيوخ القادرية هو الشيخ ادريس ود الارباب الذي استقر بالعيلفون وكانت له مكانة خاصة عند ملوك الفونج، وقد كان يساهم في فض النزاعات بين الملوك، وقد دفن بالعيلفون وله قبة مشهورة بها. استمرت هذه الفروع المستقلة للطريقة القادرية في نشر تعاليمها وزاد انتشارها في بقية أنحاء السودان واستمرت تؤدي رسالتها إلى يومنا هذا.

الطريقة الشاذلية:

تنسب الطريقة الشاذلية إلى الشيخ الضرير أبو الحسن الشاذلي وهذا هو اسم الشهرة واسمه الحقيقي علي بن عبد الله بن عبد الجبار. وقد ولد بالمغرب في عام (593هـ/1196م) ثم هاجر إلى تونس ثم إلى مصر، حيث أقام بالإسكندرية وحقق نجاحاً عظيماً. ويروى أن الطريقة الشاذلية دخلت البلاد السودانية قبل عصر الفونج أي أنها سابقة للقادرية. وأن ذلك قد تم على يد الشريف حمد أبي دنانة صهر الشيخ الجزولي صاحب دلائل الخيرات في القرن التاسع الهجري الموافق الخامس عشر الميلادي، وأن هذا العالم قد استقر في سقادي غرب المحمية الحالية بولاية نهر النيل¹¹ (يحي محمد إبراهيم، موسوعة أهل الذكر بالسودان، ص315) ومن أشهر الذين أسهموا في نشر تعاليم الطريقة الشاذلية بالسودان الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن وكان قادراً في بداية أمره. ومن رموز الشاذلية بالسودان الشيخ حمد بن المجذوب، ثم جاء بعده حفيده محمد المجذوب بن قمر الدين، الذي سافر إلى مكة وأقام في المدينة وأجيز من الشيخ السويدي ثم جاء إلى سواكن عام 1248هـ/1832م، ومنها إلى الدامر حيث استقر ونشر أوراد الشاذلية بعد أن دمجها في أوراد طريقته المجذوبية التي أصبحت رافداً من الروافد الأساسية لنقل تعاليم الشاذلية للسودان. انتقلت مؤثرات الشاذلية كذلك عن طريق الشيخ أحمد الطيب البشير مؤسس الطريقة السمانية بالسودان، وكذلك كافة الطرق المنبثقة عن المدرسة التي أسسها العالم والصوفي المغربي السيد أحمد بن إدريس وعلى رأسها الطريقة الختمية والإسماعيلية والأحمدية الإدريسية¹² (الطبقات ، ص190)

الطريقة السمانية:

تُنسب هذه الطريقة للشيخ المغربي محمد عبد الكريم السمان (ت-1189هـ)، الذي جمع بين ثقافة المغرب والحجاز وأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ مصطفى البكري والنقشبندية عن الشيخ بهانشاه النقشبندي، وذاعت شهرته فقصدته كثير من التلاميذ وأخذوا عنه ومن هؤلاء الشيخ أحمد الطيب البشير، الذي جدد عليه طوقاً سبق أن أجزى فيها ثم لازمه وأخذ عنه الطريقة الخلوتية، والقادرية، والنقشبندية، والأنفاسية، والموافقة سلوكاً وتحقيقاً وأجازها الشيخ السمان بجميع طرقه وأمره بالعودة إلى بلاده. تمكن الشيخ أحمد الطيب بفضل علمه وحكمته من استقطاب العديد من المريدين، وتميزت طريقته بالتنظيم الدقيق والكيان المركزي والمشخة الموحدة¹³ (طارق أحمد عثمان، الطريقة السمانية وأثرها الديني والاجتماعي في السودان، رسالة دكتوراه) وقد انتشرت الطريقة السمانية في جميع أنحاء السودان بفضل جهود شيوخها وميريدتها.

الطريقة الختمية:

هي الطريقة التي أسسها السيد محمد عثمان الميرغني الشهير بالختم عقب وفاة أستاذه السيد أحمد ابن إدريس وكان يعتبر من أقرب تلاميذه إليه. ولد السيد محمد عثمان الميرغني بالطائف في قرية السلامة في سنة 1208هـ/1793م في أسرة عريقة اشتهرت بالعلم والصلاح. فجدّه لأبيه هو السيد عبد الله المحبوب ت-3-1792م من كبار الصوفية ومؤسس الطريقة الميرغنية. أخذ السيد محمد عثمان الميرغني الطريقة النقشبندية، والجنيدية، والقادرية، والشاذلية، عن مشايخ عديدين إضافة إلى طريقة جده الميرغنية، قبل أن ينتهي به الأمر إلى الأخذ عن السيد أحمد بن إدريس صاحب القدر المعلى في تربيته الصوفية ودفعه في مجال الدعوة. وقام السيد محمد عثمان الميرغني موفداً من شيوخه ابن إدريس برحلات دعوية إلى السودان، وصعيد مصر، والحبشة، وأرتريا، وكان له من العمر ستة وعشرون عاماً. وصل السيد محمد عثمان الميرغني إلى السودان قبيل الغزو التركي المصري في وقت كانت فيه دولة الفونج تعاني الحروب وعدم الاستقرار الإداري والسياسي. توفي السيد محمد عثمان الميرغني في سنة 1268هـ/1852م وقام ابنه السيد محمد الحسن بمواصلة جهوده في نشر الطريقة بالسودان وحقق نجاحاً واسعاً، وأصبح محبوباً لدى معظم شيوخ وأتباع الطرق الصوفية مما أهله للإسهام في تحقيق قدر من التقارب بينها. وخلفه ابنه السيد محمد عثمان الميرغني، وجاء من بعده ابنه السيد علي الميرغني الذي ولد بمساوي بمنطقة الشاقية في شمال السودان في عام 1297هـ/1880م وكان حتى وفاته ودفنه بمسجده بمدينة الخرطوم بحري في اليوم الرابع والعشرين

من ذي القعدة 1387هـ/1968م من أبرز الزعماء الدينيين والسياسيين في السودان¹⁴ يحي محمد إبراهيم ع موسوعة أهل الذكر ، ص155)

الطريقة الاسماعيلية:

تُنسب هذه الطريقة إلى الشيخ إسماعيل الولي وهو بديري دهمشي هاجرت أسرته من منطقة دنقلا إلى كردفان. وقد ولد الشيخ إسماعيل بالأبيض في سنة (1207هـ/1792م) وبها نشأ وحفظ القرآن واشتغل بالتدريس وبها التقى بالسيد محمد عثمان الميرغني وأخذ عنه تعاليم المدرسة الإدرسية والطريقة الختمية. وفي عام 1241هـ/1826م أي بعد تسع سنوات من أخذه عن السيد الميرغني أسس الشيخ الولي طريقة مستقلة عُرفت بالإسماعيلية، ومع ذلك ظل على وفائه لأستاذه الميرغني وانتشرت طريقته بين البديرية، وسكان الأبيض. وقام هو وتلاميذه بنشاط دعوي واسع لنشر الإسلام في مناطق جبال النوبة. توفي الشيخ الولي بالأبيض وله قُبة تعد من معالم المدينة وقد خلفه في رئاسة الطريقة ابنه السيد محمد المكي، الذي اشتهر بالتأليف في مسائل الطريقة والسالكين والفيض الإلهي والمدح والأحاديث. وفي عهده انتشرت الطريقة من مناطق كوستي والنيل الأبيض والجزيرة وأدرمان¹⁵ (موسوعة أهل الذكر ، ص 105)

الطريقة التجانية:

تُنسب هذه الطريقة إلى السيد أحمد بن محمد بن مختار المشهور بأحمد التجاني وهو من أشهر متصوفة وعلماء القرن التاسع عشر في أفريقيا. ولد بعين ماضي بالمغرب في سنة 1737م. وفي سنة (1186هـ/1772م) توجه لأداء فريضة الحج، وفي المدينة أخذ الطريقة السمانية الخلوتية عن الشيخ محمد عبد الكريم السمان كما أخذ أثناء وجوده بمصر الطريقة الخلوتية عن الشيخ محمود الكردي. دخلت الطريقة التجانية السودان عن طريق غرب أفريقيا على يد عالم من الهوسا هو عمر جانبو الذي أخذ الطريق عن الشيخ محمد الصغير بن علي أحد تلاميذ الشيخ التجاني. وقام بنشر تعاليم الطريقة بدارفور وكردفان.

هنالك العديد من الطرق الصوفية بالسودان التي لم يسع المجال لذكرها كلها ولكن علي سبيل المثال هناك الطريقة الرشيدية، وتنسب هذه الطريقة إلى الشيخ إبراهيم الرشيد الدويحيوالتي انتشرت في مناطق النيل الأبيض. وكذلك الطريقة الاحمدية الادريسية، وقد ارتبط دخول الطريقة الإدرسية للسودان بالسيد عبد المتعال بن السيد أحمد بن إدريس وابنه محمد الشريف اللذان وصلا إلى منطقة دنقلا عن طريق مصر، وغيرها من الطرق الصوفية.

شرح يوسف فضل حسن في مقدمة تحقيقه لكتاب الطبقات الأدوار المتعددة التي اضطلع بها شيوخ الطرق الصوفية في السودان وسعيهم ومجاهداتهم في نشر وتعميق العقيدة الإسلامية بطريقة مبسطة من خلال إلزامهم لمريديهم وأتباعهم بمنهج تبدي وخلق معين. وكانت درجة نجاح الشيوخ في هذا المسعى تعتمد على ما يتمتعون به من مكانة وسلطان روحي وعلم وخلق وورع وزهد وكرامات وبركة. وساد اعتقاد وسط جمهرة المريدين والأتباع أن مخالفة الشيخ أو الولي تعود عليهم وعلى أطفالهم باللعة والضرر وأن الشيخ قادر حياً وميتاً على أن ينقذ ويغيث ويشفع لمن يتوسل به¹⁶ (الطبقات، ص 9-11)

فمما سبق يمكن أن نخرج إلى المحور الثالث وهو المؤثرات المغاربية في التراث الصوفي، وإن كان ما ذكرته الباحثة في المحور السابق (دخول الصوفية) فيه إشارة واضحة للتأثير المغاربي في التراث الصوفي في السودان.

المؤثرات المغاربية على التراث الصوفي في السودان:

لعل ما ذكرته الباحثة في المطلب الثاني من البحث يؤكد على حتمية الأثر المغاربي للتصوف، وهو أن كثير من أئمة الطرق في السودان هم من المغرب أو الشمال الأفريقي، كما في الطريقة وشيخها أبو الحسن الشاذلي، والطريقة السمانية وشيخها محمد عبد الكريم المغربي، والطريقة التجانية وشيخها أحمد التجاني، وقد ذكر أبو علي أحمد بن الحاج في مخطوطته (كاتب الشونة) أن في أول النصف الثاني من القرن العاشر ولي السلطان عمارة أبو سكيكين الشيخ عجيب المانجلك، ففي أول ملكه قدم الشيخ إبراهيم البولاد من مصر إلى دار الشايقية ودرس فيها الفقه، ثم بعد يسير قدم الشيخ التلمساني المغربي إلى الشيخ محمد ولد عيسى سوار الذهب وسلحه طريق القوم، وعلمه الكلام، وعلوم القرآن من روايات وتجويد ونحوه،¹⁷ (أبو علي أحمد بن الحاج مخطوطة كاتب الشونة ص 26-28).

ومن العلماء الذين أحدثوا تغييراً جذرياً في البنية الثقافية السودانية كذلك الشيخ محمد بن عبد الكريم التلمساني المغيلي. فهؤلاء العلماء قدموا إلى السودان وكل ما قدموه من معرفة وثقافة أحدثت تغييراً جذرياً في البنية الثقافية الدينية في السودان.

ومن أنماط التأثير المغاربي كذلك استخدام أهل السودان لبعض المصطلحات التي عرفت بعد دخول المغاربة في عهد دولة الفونج مثل :

1- المسيد : فكلمة مسيد أصلها مسجد ثم صغرها العامة فأصبحت مسجداً ثم أدغمت الياء في الجيم فصارت مسيد، وهذا معروف عند أهل المغرب العربي، غير أن هذه الكلمة دخلت

إلى السودان مع توافد العلماء من الحجاز والمغرب الذين قاموا بتأسيس المسيد في السودان، حيث أصبحت هذه الكلمة في قاموس اللهجة السودانية تعني المسجد وتطلق أيضاً على المكان الذي يضم مدرسة القرآن والمصلى والمسكن. 18(أسامة عبد الرحمن عبد الله ص57) ،

2-الزاوية : وهي من المباني الدينية التي تأثرت بنظام شمال أفريقيا، والزاوية هي مكان لاقامة الشيخ، حيث نجدها في السودان تستخدم في المناسبات الاجتماعية وقد ارتبطت في الفترات الأخيرة بالطرق الصوفية وقد انتشرت في أنحاء عديدة"(19 آدم أحمد حسين ص108) .
وإذا أردنا أن نلمح الأثر المغربي في الموضوعات الشعرية ، فيمكن للباحث أن يقارن الشعر الصوفي في بلاد المغرب ونماذج لنفس المعاني في الشعر السوداني، فمن ذلك ما جاء في ديوان التجاني يوسف بشير (إشرافة) فقد كان التجاني محبا ينظر بعيون العاشقين المحبين الذين يرون الخير والجمال في كل شيء، فإذا نظر التجاني إلى النملة رأى فيها ما لا يراه سواه فيقول:
20(ديوان إشرافة ، ص53)

هذه النملة في رقت ها رجع صدها

هو يحيا في حواشيها وتحيا في ثراه

وهي أن أسلمت الرو ح تلتقتها يدها

كل ما في الكون يمشي في حناياه الإله

ترى الباحثة أن هذه النظرة عندأئمة الصوفية الكبار ، وهي رؤية الخير والجمال في كل شيء، وما يدعم ذلك ما قاله النابلسي في الكلب فوصفه يصفاته كلها حميدة ورأى فيه ما لا يراه العامة فيقول النابلسي : 21(ديوانالنابلسي مدونة كنور)

في الكلب عشر خصال كلها حمدت *** يا ليتها كلها أو بعضها فينا

جوع له ولم يزل والصالحون كذا *** وما له موضع يختص تعيينا

كم على ربه لا زال متكلاً *** ولا ينام سوى من ليله حينا

مثل المحبين لا ميراث قط له *** إن مات كازاهدين المستقلينا

وليس يهجر يوما من يصاحبه *** وإن جفاه كأخلاق المريدين

وراضياً ببسير من معيشته *** ما زال كالقانع المستكمل الدنيا

وإن يكن غالباً شخص سواه على *** مكانه ينصرف عن ذاك تهوينا

يتركه مثل أصحاب التواضع قل **** وإن بضرب وطرد من فتي هينا
ثم الفتى قد دعاه بعد ذاك أتى *** كحال أهل خشوع خذه تبيننا
وإن رأى الأكل أضحى واقفا تره *** يزنو إليك كأخلاق المساكيننا
وإن رجل لا شيء ترى معه *** مثل الذي حاز في التجريد تمكيننا

رأى النابلسي هذه الخصال الحميدة في الكلب وتمناها أن تكون فيه!!، صبره على الجوع، وهو الحيوان الوحيد الذي لا يُعرف جوعه ، وكل الحيوانات إذا مسها نصب أو جوع أظهرت حالها بالنياح والصياح إلا الكلب، وكذلك رأى فيه الوفاء حتى لمن جفاه.

أما أبو الحسن الشاذلي فتحدث عن الخمر والسكر، خمرتهم وسكرهم هي خمرة (لا إله إلا الله)، وكما تغير الخمر حال شاربها فينزغ سكرًا لا يدري ما يقول وما يفعل. فخمرة لا إله إلا الله سكرها عندهم يغير حالهم من النفس السفلى إلى النفس العليا ، فتتبدل نفوسهم فتكون كالزهر المعطار ، التي تنتشر شذاها في غير تكلف لأن الخير فيها صار طبعاً وأصلاً، فيقول: "22 maspiro.net"

شربنا كأس من نهوى جهارا فرنا بعد رؤيته حيارى
مشعشة لها نور عظيم ولا للقلب عنها اضطبارا
فإن متنا فلا عار علينا ولا في شرعنا للقتل عارا
ومنا من يكون مجنوننا فيها سلب العقل يرمى بالحجارة

ويقول أحمد ود مصطفى في غرام الخمر :

ليلي شالت والشراب دور لا إله إلا الله
بكاسات السرور نسكر لا إله إلا الله
يخامر عقلنا ونسكر لا إله إلا الله
نبيح السر وبه نجهر لا إله إلا الله

فمن هنا يتضح للباحث أنهم سكروا بخمرة " لا إله إلا الله" كما ذكرت الباحثة ،

عندما ذاقوها وذاقوا شرابها سلموا إرادتهم لربهم جل أمره عندهم ، والذي كانوا في جهلهم يقدمون إرادتهم على إرادته لأنه الأمر في حقيقته كله إرادة رب ، من سلم إليها سلم وسعد في دنياه وآخرته فقد جاء في الحديث القدسي لنبي الله داود

" يا داود أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لما أريد كفيتهك ما تريد ، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد". 23 (منتدى الأزهرين ، موقع الكتروني)الإرادة

عندهم مشتقة من ريدة علموا هذا الأمر علم يقين بأن السعادة هو تسليم الإرادة للمريد والرضا بها
فهنا مكمّن السعادة ,

ملاح من الشعر الصوفي في السودان :

في هذا المحور سنتعرف معاً إلى نخبة من شعراء المتصوفة في السودان ، وهو غيض من فيض
،فاختارت الباحثة بعضاً منهم .

محمد المهدي المجذوب:

ولد محمد المهدي المجذوب في مدينة الدامر ن وهو شاعر قال الشعر كما يقوله شعراء الجاهلية ،
وذلك لأنه تعلم القرآن وحفظه، وتعلم العربية على يد والده الشيخ مجذوب جلال الدين، وقد اصدر
عددا من الدواوين منها " الشرافة والهجرة " و " نار المجاذيب " و " شحاذ في الخرطوم و " تلك الأشياء " .
وتجربة الشاعر المجذوب تجربة ثرة وغنية ، وقد تأثر فيها بالوهج الصوفي الذي أسهم في بناء
شخصيته وتشكيلها (24 مجلة الصحافة ، محمد المهدي المجذوب أروع المغنين، نشر بواسطة محمد
سليمان دخيل الله 14- 9- 2010 م). يقول المجذوب في مقدمة ديوانه نار المجاذيب: " وكنت
اصنع هذا الشعر على أحوال مختلفات....." 25(محمد المهدي المجذوب، ديوان نار المجاذيب) .
تعتقد الباحثة أن ما جاء في المقدمة من لقطة أحوال يوحى بصوفية هذا الشاعر ، فله رائحته التي
تطرب جل الشعب السوداني " قصيدة المولد" فيقول. (نار المجاذيب ، ص78)

صل يا ربي على المنذر

وتجاوز عن نذوبي واغفري

واعني يا إلهي بمتاب أكبر

فزواني ولع بالمنكر

+++++

وزها ميدان عبد المنعم

ذلك المحسن حياه الغمام

بجموع تلتقي في موسم والخيام

قد تبرجن وأعلن الهيام

وهنا حلقة شيخ يرجحن

يضرِب النوبة ضرباً فتثن وترن

ثم ترفض هديراً أو تجن

فاحتفالية المجذوب بمولد خير البرية ، ظاهرة في كلمات القصيدة ، فرسمت هذه القصيدة صوراً ولوحات بازخة الروعة والجمال، وهي احتفالية بالإيقاع وغنائية اللغة. فيعد المجذوب واحداً من الذين أسسوا للشعر في السودان وللتقافة السودانية.

التجاني يوسف بشير:

ولد التجاني بمدينة أم درمان في عام 1910م وانتقل إلى رحاب الخلود بها في عام 1936م، وبالرغم من حداثة سنه فقد بز التجاني أدباء زمانه واذهل معاصريه ببلاغته وفصاحته ، ومقدراته البيانية المتفردة، وبعده الصوفي العميق، ونضجه اللغوي المبكر ، وبقلمه المبارك الساحر (26 بدرين يوسف موقع الكتروني).

فالتجاني كان صوفياً بارعاً رقيق الإحساس مرهف الشعور متفتحاً على العرفان شأنه في ذلك شأن أئمة الصوفية الكبار فاستقل مقدراته البلاغية الهائلة للتعبير الرمزي . والتأمل الرفيع المؤدي إلى الحقيقة الأزلية والتجليات الذاتية فيقول: 27 (ديوان إشراق ، ص 123)

في تجلياتك الكبرى وفي مظهر ذاتك

والجلال الذاخر الفيض من بعض صفاتك

والحنان المشرق الوضاح من فيض حياتك

والكمال الأعظم أسمى سجاتك

قد تعبدتك زلفى زائداً عن حرمتك

أفنييت نقسي وافرغت بها في صلواتك

فالتجاني يوسف بشير مرت حياته يكثير من المراحل لا يسع المجال إلى ذكرها، والذي يهم بأن التجاني كان يبتغي أن ترسو سقينة حباته على شواطئ النعيم حيث الحقيقة الأزلية في جنبه وحيث الله العظيم في قلبه ، فيقول: 28 (ديوان إشراق ، ص 69).

أطل من جبل الأحقاب محتملاً سفر الحياة على مكثود سيماء

عاري المناكب في أعطافه خلق من العطاف قضى إلا بقاياها

مشى على الجبل المرهوب جانبه يكاد يلمس مهوى الأرض مرقاه

هنا العدالة في اسمي معالمها مسود دميت بالظلم كفاه

في موضع السرمن دنياي متسع للحق أفتا يرعاني وأرعاه

هنا الحقيقة في جنبي هنا قبس من السموات في قلبي هنا الله

فالتجاني من الشعراء العباقرة الذين أنجبتهم حواء السودان، ولأن مثله لا يبقى طويلا فقد رحل في ريعان شبابه مخلفا ديوانه الوحيد وعددا من المقالات الصحفية المتناثرة وطموح يناطح الجبال .

ومن شعراء التصوف في السودان من اوقف شعره لمدح النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آل بيته ، من مثل ود حليب ، وحاج الماحي ، وود سعد ، والشرقي الهندي وغيرهم ، وجميعهم نظموا بالعامية والفصحى فمن ذلك قول حاج الماحي 29 (أدب المدائح، موقع الالكتروني

صل يا حبور للنبي المنصور المندثري ليهو زاد حسري

اول الكلام اشرح المسطور الغني المريد فاعل الأمور

مالك الملك فيه ما بيشوركاشف البلاء ودافع الشرور

اثني قولي بي سيدي المنصور شافع الخلق يوم النشور

شاخصين عراة والجحيم تفورزفرة الهجير فاقت القدر

شافنا قام وقف أحمد السرورخلص البصيح في العذاب مزرور

اصلو سابقا خمشة نور من نور لأبيه في أمنة بان ظهور

تعتقد الباحثة أن تراث حاج الماحي في فن المديح النبوي مؤسسة تعليمية ضخمة لتعليم السيرة العطرة ، يستوجب الجمع، خدمة للأجيال القادمة .

وكذلك من شعراء المديح النبوي الشيخ أحمد ود سعد ، فهو من المادحين المبدعين، الذين اثروا الساحة الأدبية، فنختار واحدة من قصائده وهي: 30 (أدب المدائح ، موقع الالكتروني)

صل يا من لك الشكر على الممدوح في الذكر

يا رازق الطير في الوكر اعوذ بك من المكر

بحق سيدي أبابكر وما يتلى من الذكر

سريع أيعظني من سكري واشغل في الاعتبار فكري

رسول الله يا مطري يا صاحب الشذى العطر

لولاك لا غيث ولا مطر لا كتاب ولا سطر

تعال يا عاشقوا من بدري شمايل المصطفى

سوا البطن والصدر وجهوا يفوق على البدر

اشد حياء ذو القدر من العذراء في الخدر

نبيا وصفو في الزبر موسى للعليل ييري

احيا المات من القبر فضل أيوب في الصبر

وفاق جمالو يا حبر القميصهو قد من دبر

هؤلاء هم ملح الأرض عرفوا أو لم يعرفوا سمت نفوسهم عن السخف والخرافات والأباطيل قال

ابن الفارض : 31 (شرح ديوان ابن الفارض، ص37)

تعرض قوم للغرام فأعرضوا بجانبهم عن صحتي فيه واعتلوا

رضوا بالأمانى وابتلوا بحظوظهم وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا

وعن مذهبي لما استحباو العمى حسدا من عند انفسهم ضلوا

فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا

أفه السلوك عند حظوظ النفس التي عندهم تتوهم الكمال وهي بعيدة وغارقة في جهلها

ومصيبتها انها لا تدري (خاضوا بحار الحب ودعوى فما ابتلوا) فعند شعراء المديح القومي تعرفوا

على اوهام النفوس ورأوا نقص انفسهم دائما لا كمالها ، قال الشيخ الدقوني من شعراء المديح

السوداني عن نفسه توسل ان يغطي الله عيوبها : 32 (عمر الشيخ عليالمادح ود مصطفى ، رسالة

دكتوراه)

نفسى الدانية وجنبه في الدارين غطي عيبها

وقال الشاعر ود مصطفى شاعر القادرية

عبد سوء مجرم بي غرامك مغرم

.....

وقال في أخرى : ود مصطفى الناداك مذنب أثيم افاك

بمراقبة نفوسهم المجاهدة في تصحيحها أولا إمساك شرهم عن الآخرين ، الأحياء والأشياء ،

حتى زحفوا نحو خواطرهم. فمعلوم أنه عندما نزلت الآية " وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم

به الله" (سورة البقرة ، 284)، قالوا أنحاسب بما تحدثنا به نفوسنا يا رسول الله؟ فنسخت في حقهم،

وقال صلى الله عليه وسلم : (غفر لامتي ما حدثت به نفوسهم إلا أن تقل أو تفعل ولكن قيل لي انت

منهم) 33 (شرح الإمام ابن باز مدونة الكترونية) . " فإنه محاسب حتى على خاطره وسريته وما

تحدث به نفسه وجاء في الحديث : (حسنات الأبرار سيئات المقربين) وحسنه البر بمعنى حدثته

نفسه بشر فاستغفر منه ولم يقله ولم يفعله فهو حسنة له ، ولكن عند المقرب سيئة في حقه ، (وان

تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) (سورة البقرة ، 283)، هؤلاء نفوسهم منهم في تعب

والناس منهم في راحة , قال العارف ابن الفارض بمعنى ذلك : 34 (شرح ديوان ابن الفارض، ص63)

وإن خطرت لي يوما لي في سواك خطرة حكمت علي برديتي
والشيخ الأكبر ابن عربي قال: 35(ديوان محي الدين بن عربي ، رفم القصيدة 11906)
ولي عندها نذب برؤية غيرها فهل إلى ليلى المليحة شافع
ألا يرى في حياته وما يلاقيه غير رؤية الخالق في متقلبه ومثواه . أكثر من ذلك قال :
وإن تبدت ليلى فكلي أعينن وإن قالت فكلي مسامع

الخاتمة

نخلص من ذلك أن الأدب الصوفي لمن تبصره كله تربية على أن لا نجعل بجهلنا فيه فقد قال
الناقليسي بمعنى ذلك : 36 (ديوان شعر عبد الغني الناقليسي ، كنوز مدونة الكترونية)
ولا تعجل بجهلك في كلامي فدعه لمن يوحد يامثني
وبالتوحيد يعرف كل شيء ويجهل كل شيء بالتثني
التثني هو من يرى الأمور بكدر نفسه والظن السيئ فتجب عنه الرؤيا بقتام نفسه وظلامها فلا
يرى إلا ظلامه هو.
نتيجة لما سبق فأن الدراسة توصي بزيادة الاهتمام بالبحث العلمي في الشعر الصوفي بعامة
والسوداني بصورة خاصة .
ونلاحظ من خلال هذا البحث أن التصوف المغربي له الفضل في نشر القيم والأخلاق، من خلال
مابته العلماء الذبن وفدوا إلى السودان، فتمثل متصوفة السودان كثير من المعاني والألفاظ ، وقد
ظهر ذلك في التراث الشعري السوداني ،

قائمة المصادر والمراجع:

- 1| السيد عقيل بن علي المهدي ، مدخل إلى التصوف، ط2 ، دار الحديث للطباعة والنشر .
- 2| ديوان الناقليسي مدونة الكترونية Konouz.com
- 3| أمين يوسف عودة ، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، جامعة آل البيت الأردن ، جدار للكتاب
العالمي للنشر والتوزيع.

4-www.saaaid.net

- 15| يوسف فضل حسن ، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي(1450-1827) جامعة الخرطوم، 2003م.
- 16| بابكر فضل المولى جسين، مظاهر الحضارة في دولة الفونج الإسلامية(1504-1821)، منشورات الخرطوم عاصمة الثقافة العربية 2005م، ط1 .
- 17|عبد القادر محمود، الفكر الصوفي السوداني، ط1، مطبعة المعرفة دار الفكر العربي 1969م.
- 18| تحقيق يوسف فضل ، كتاب الطبقات لود ضيف الله،
- 19| يحي محمد إبراهيم ، موسوعة أهل الذكر بالسودان ، مدرسة أحمد بن إدريس وأثرها في السودان ، دار الجيل ، بيروت ، ط1، 1993 م.
- 10| طارق أحمد عثمان الطريقة السمانية وأثرها الديني والاجتماعي في السودان، رسالة دكتوراه في الدراسات الأفريقية ، جامعة أفريقيا العالمية ، الخرطوم، 2000 م،
- 11| أحمد بن الحاج ، مخطوطة كاتب الشونةفي تاريخ السلطنة السنارية والإدارة المصرية ، تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة 1961م .
- 12|التجاني يوسف بشير ، ديوان إشراق ، ط1، دار الثقافة بيروت، مكتبة النهضة السودانية=، الخرطوم 1973 م .

13 |maspiro.net

14 |www.azhera.net

- 15| محمد سليمان دخیل الله، محمد المهدي المجذوب أروع المغنين، مجلة الصحافة مجلة الصحافة ، 14-9-2010م.
- 16| محمد المهدي المجذوب، ديوان نار المجاذيب، ط1، الخرطوم يناير 1969م.

17 | Htt|binbaz.arg.sa

- 18| مصطفى رجب، شرح ديوان ابن الفارض، دار الايمان للنشر والتوزيع، ط1،
- 19| ابوبكر محي الدين بن عربي الحاتمي ،ديوان ابن عربي الشيخ الأكبر، مكتبة المثني بغداد
- 20| Konouz.com